النهضة الشرقية الحديثة

وأظهر مظاهرها

من عشر سنوات
في المقتطف

مختارات من استفتاء للمقتطف
تم سنة ١٩٢٦ — ونشر سنة ١٩٢٧

ما مزج الشرق عن جموده

للشيخ مصطفى عبد الرازق

أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة في الشرق الادنى هي النهضة الفكرية التي زحزح الشرق عن جموده والتي هي اساس لكل نهوض

بدت مظاهر الجمود العلمي في الشرق ، حين عدا على الشرق الجمود ، من وجهين : احدهما — صبغ العلوم كلها بصبغة واحدة ، والذهاب بغاياتها جميعاً الى وجهة دينية ، ليست هي الغاية التي تتجه اليها العلوم بطبيعتها

فعلم العروض الغرض منهُ ان تعلم ان القرآن الكريم ليس بشعر

وعلم الحساب تعرف به تقسيم المواريث على النظام الشرعي

وعلوم الهيأة والفلك تهتدي بها الى القبلة ومواقيت الصلاة

والفلسفة يراد بتعلمها الرد على ما تتضمنهُ من آراء مخالفة للدين

والامر على هذا المنوال في سائر العلوم

ولاشك ان توجيه العلوم في هذا الاتجاه ضيق دائرتها وانحرف بها عن مذاهبها ، ووقفها عن التقدم ، ووسمها في قواعدها وشواهدها واغراضها بسمة خاصة هي سمة الدين التي لا تحتمل كل ما تحتمل حرية البحث العلمي من فروض وتجارب وشكوك

والوجه الثاني — تغلب الاسلوب الديني على اساليب النظر المنطقي في جميع مناحي البحث ، وهو متصل بالوجه الاول

الدين يعتمد على نصوص مقدسة مصدرها الوحي الالهي ، وكل جهد التفكير الانساني فيما هو تفهمها وتأويلها ، والباعث حكم ومؤيدات من جانب العقل لما جاءت به

اما البحث العلمي فهو يتناول الاشياء والحوادث والمعقولات ، يحلل مركباتها ، ويؤلف بسائطها ويستقرىء جزئياتها ، ويصل بين عللها ومعلولاتها

هما اسلوبان متباينان ، قد لا يستغني الانسان عنهما ، لكن لا يجوز له الخلط فيهما

على ان انحطاط الشرق ، وتقاصر الهمم فيه ، وارتباك العقول ، وفقدان روح الحرية والاستقلال ، كل اولئك خلط بين الاسلوبين بل محا احدهما ، واصبحت العلوم ديناً تحترم نصوص المؤلفين السابقين فيه كما تحترم الكتب المنزلة ، ولم يبق للاحقين الا ان يتدارسوا ما كتب الاولون ، ويخدموه بشرح او حاشية او تقرير

وهكذا جمد العقل وجمد العلم وجمد الدين

***

ثم جاءت النهضة العلمية الحديثة في الشرق ، تفصل بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، وتخلص اساليب البحث العلمي من الاسلوب الديني

نشأت هذه النهضة في مصر باتصالها بالمعارف الغربية ، فقد جاء مع (بونابرت) علماء كانت آثارهم بزوراً لم تذهب كلها بداداً

وارسل محمد علي الكبير الى اوربا بعثات علمية اختارها من الازهر . فذهبت متينة باخلاقها الدينية وتعليمها الازهري ، وعادت أشد متانة واوفر كفاية بما كسبت من معارف جديدة ، وبما عرفت كيف تفصل بين وجهة النظر الديني ووجهة النظر العلمي

اخذوا يضعون في ضروب من العلم مختلفة مؤلفات ليست متوناً ولا شروحاً ولا حواشي ولا تقارير ، وليست على ذوق الدينيين وما ألفوا من أساليب وأخذوا يعربون خير ما عند الفرنجة من كتب في الفنون التي درسوها . واليهم يرجع الفضل في النهضة العلمية الحديثة

وقد وصل ارهم الى المعاهد الدينية نفسها ، التي نشأوا فيها نشأتهم الاولى ، فنبه اهل تلك المعاهد الى صنوف من العرفان لم يعرفوها ، واساليب من التفكير والبحث والبيان لم يألفوها

واذا كان ذلك مما أثار كفاحاً بين الجمود الذي لا يريد تغييراً والنهوض الذي يريد ان يحل العلم من عقاله ، ان يجعل للدين سبيلاً خالصة ، فهو قد أنبت بين الدينيين انفسهم فكرة اصلاحية . وأنهض من بينهم مصلحين يعملون على تقرير حرية العقل واعتبارها عما جاء به الدين

وكانت خدمة هؤلاء المصلحين للدين والعلم خدمة جليلة بما أيدوا حرية العقل من وجه ديني

وبما حسموا اسباب عداوة بين الدين والعلم كان رجال يثيرونها في نفوس الجماهير حرباً مدمرة

خدم هؤلاء المصلحون دينهم ، اذ ردّوهُ الى ينابيعه الصافية ، وجرّدوهُ من التشويه والسخف ، وأبرزوهُ كما أنزلهُ الله من السماء نقيًّا حرًّا سمحاً كريماً

وخدم هؤلاء المصلحون النهضة العلمية في مهدها ، وصانوها من طغيان المجاهدين ، وردّوا عنها كيد الكائدين

ولقد كان الامام محمد عبده يهتف في الناس بكل ما أُوتي من قوة الايمان وقوة العقل ، ان ليس من الدين ان يرمى بالكفر اهل النظر العقلي وان زلوا ، فانما هم يطيعون الله في تحريك عقولهم « ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك »

اما الذين جاؤوا بعد الشيخ محمد عبده يقذفون كل مفكر بالكفر ، فأولئك في ايمانهم ضعف وفي عقولهم

***

ومن العوامل التي لها في نشر الحركة العلمية في الشرق أثر معاهد العلم التي انشأها الاجانب ولئن كان في كثير منها منازع مؤذية ، فقد تضاءل كل اثر لها غير صالح الى جانب أثرها العلمي ، فان العلم بأبى بطبعه الا ان يكون مثمراً ثمرة خير

ومن قول ما قال الغزالي : « طلبنا العلم لغير الله فأبى الا يكون لله »

***

وقد نشأت الصحافة مع نشأة النهضة العلمية . فكانت مظهرها قوة وضعفاً وتأثرت بها وأثرت فيها

لكن الصحافة كثيراً ما تراعي هوى الجمهرة من قرائها ، وكثيراً ما يكون هوى العلم غير ما تهوى الجماهير

بيد ان مجلات علمية نشأت في عهد علمي وحملت لواء العلم ، قد ادت للعلم احسن خدمة بتيسيرها مباحثهُ العويصة ، ومثابرتها على بث التفكير العلمي ، والمبادىء العلمية وقد كانت ولا تزال ، مدارس صالحة لطوائف من المتعلمين لا يتهيأ لها ان تساير حركة الرقي الفكري في العالم الا من سبيلها

***

واذا ذكرت النهضة العلمية في الشرق الادنى وذكر انصارها فالمقتطف جدير بان يحمل راية السبق في هذا الميدان

خمسون عاماً من اعوام الجهاد في خدمة العلم وحرية الفكر في الشرق أيقظها الدهر فوق جبين شيخ المجلات ، إكليل مجد وفخار

طلائع التفكير الحر

لسامي الجريديني المحامي

في التاريخ نهضات كثيرة منها ماكان سياسيًّا نقل السلطة من يد الى اخرى ومنها ماكان اجتماعيًّا قضى على نظم موروثة وتقاليد معبدة ومنها ماكان أدبيًّا غيَّر نظام التفكير وفكَّ العقل من قيوده

فهل عندنا في الشرق مثل هذه النهضات ؟ او بالاولى مثل هذه الثورات ؟

ولماذا تقول النهضة في «الشرق» . اني لا احبّ هذا التعميم — فاهو الشرق ؟ ومن هم الشرقيون ؟

ولماذا نسير وراء هذا التقسيم القديم الاعمى فنفصل العالم الى شرق وغرب

قف امام خارطة العالم واجعل اعلاها شمالاً واسفلها جنوباً ويمينها شرقاً ويسارها غرباً ترَ مصر مع افريقيا في الجنوب لا في الشرق . بل انت ترى اوربا نفسها شرقاً اذا قيست بأميركا

ألا إنهُ خطر لقدماء الاغريق ان يقسموا العالم الى شرق وغرب يجب ان نسير نحن وراء هذه القسمة

انها ليست على شيء من حقيقة الجغرافية

وهل يصح ان نكون نحن شرقيين مثل اليابانيين والصينيين ونُعدّ عنهم جنساً ودماً ودينًا بعد ما بين السماء والارض . وهل يصح ان يكونوا اقرب الينا منا الى اليونان والبلغار والتليان وبيننا وبين هؤلاء ربط عديدة لا نجدها بين الصين ومصر مثلاً

او نقصد الى القول بأن النهضة في مصر ترمي الى انهاض الحجاز والعراق وفلسطين وسوريا وتركيا وما الى هذه البلدان التي نجمعنا بها جامعة قديمة

الحقيقة اننا لا نجرؤ على القول بالقومية بعد . اننا لا نجسر ان نقول ثورة مصرية او ثورة سورية او ثورة تركية قسم ونقول شرقية كما تقدم فلقد بعد التفكير تفكيراً قوميًّا لحداثة عهدنا بمثل هذا التفكير . اللهمَّ الاَّ الاتراك فقد ساروا على غير ما نسير نحن عليه ولعلهم شدوا الرحال في سيرهم شدًّا سريعاً قد لا يكون ممدوح العاقبة بعد ما بين الغرض الذي يرمون اليه وتاريخ

عنصرهم المعروف . ولكنهم في نظري الشعب الشرقي الوحيد السائر الى غاية محدودة على طريق محدودة — لذلك يصح لنا بحق ان نقول « نهضة تركية » فانها ثورة سياسية واجتماعية تهيأ لها ما يهيأ لكل الثورات — زعيم يقود رامياً الى غرض وسير حثيث الى هذا الغرض وجهاد مع اجنبي أثار فيهم روح القومية باستفزاز عواطفهم وهكذا سبيل الشعوب في تكوين قوميتها . دع عنك ما على هذه النهضة من انتقاد ليس هنا محل البحث فيه

اما في ما سوى ذلك فأين النهضات في « الشرق » اذا سلمنا جدلاً بهذا التقسيم الذي يفصل العالم الى شرق وغرب

نحن من الذين يعتقدون ان الحضارة الغربية خير الحضارات التي يتعين علينا اقتباسها كما اننا من الذين ينظرون الى الامر الواقع فيرون انها هي الحضارة السائدة العالم ونحن من الذين يعتقدون ان طريق نجاتنا في مسالمة هذه الحضارة وتكييف حضارتنا عليها تكييفاً لا يناقضها بل يماشيها

ذلك أن التاريخ يقص علينا قصص اصطدام الشرق بالغرب منذ العصور الاولى حتى الساعة فما قصّ الاّ حديث اصطدام كانت نهايتهُ انهزام الشرق امام الغرب — فالعاقل من اعتبر وعرف ان يتلمس طريقاً غير طريق جربهُ فقادهُ الى مواطن الخطر

ونحن من الذين يعتقدون انهُ لا بقاء لنا في معترك الحياة الدولية الاّ اذا كوّنّا قوميات شرقية مستقلة مثل القوميات الغربية فكما انك لا تطمع في تكوين شركة تجارية او جمعية ادبية الاّ اذا عثرت على « شخصيات » مستقلة هي افراد الرجال كذلك لن نكون اهلاً لدخول المجتمع المتمدن ان لم تكن لنا شخصية صحيحة وهي القومية بما تمنيهِ هذه القومية من معانٍ وما تفرضهُ من تبعات وحقوق

فليست الحضارة الغربية لباساً يرتدى او لغة يرطن بها بل هي اساس عميق للحرية : حرية الفكر والقول والعمل ، وبناء شامخ للنظام : النظام القائم على هذه الحرية

فهل عملنا على اقتباس هذه المدنية ؟

انني على الرغم مما بي من التشاؤم عند ما ادرس تاريخنا القديم وعند ما انظر الى حاضرنا ، اني على الرغم من ذلك اظن اننا وقد احتككنا مكرهين بالغرب قد بدأنا ثورة فكرية لا بأس بها فالتفكير الحرّ اساس كل نهضة سياسية كانت ام اجتماعية . ولا تسل عما يؤدي اليه هذا

التفكير . لا . دعهُ يسير . فهو يقاوم ويُقاوم وتصطدم حريتهُ بحريات اخرى وهكذا الى ان يتمّ النصر للفكر الصحيح

فما لا شكّ فيهِ ان جرثومة التفكير الحرّ بدأت في مصر وفي سوريا منذ نيّف وخمسين عاماً — بدأة بكتّابٍ فكروا تفكيراً حرًّا صدم ما في الجماهير من عقيدة موروثة فوقفوا في سبيلها ولكن الفكرة نمت فجاءت بقوم قاوموا استبداد الحكام في عز جبروتهم الطاغي ووقفوا في وجه رجال الدين يمنون عليهم جهلهم فما زالت حتى زحزحت ما كان لتقدمهم من مقام

على ان التفكير الحرّ في مصر وسوريا لم تتح لهُ عوامل سياسية تساعدهُ

فقد كان اختلاف الحكام في اوربا وتضارب مطامعهم السياسية مما جعل بعضهم ينصر لوثر في إصلاحهِ وبعضهم يشجع الهوجنوت وبعضهم يحمي فولتير وهكذا وجد المفكرون الاحرار الفقراء من يأخذ بأيديهم على غير قصد فساروا يحملون شعلة فكرهم الى ان حرقوا الهشيم القديم

اما عندنا فقد اتفق فيما مضى الجمهور مع حكامهِ المستبدين فكانوا يقاومون كل تفكير حرّ اينما ظهر

ولكنهُ على الرغم من هذا ظلّ حيًّا وها قد بدت طلائعهُ تظهر ظهوراً لم تعهدهُ من قبل فهل يتمّ لهُ النصر او يظلّ محصوراً في دائرة ضيقة كما كان في الماضي فلا ينمو ولا يعيش ؟ لا اعلم

ان تاريخ اضطهاد التفكير الحرّ لتاريخ مجيد . ومجدهُ تاج يلبسهُ كل هؤلاء الذين اضطهدوا وعذبوا وحوكموا وسجنوا في سبيل تفكيرهم

وها قد ذهب الآمرون بالتعذيب والناهون عن الحرية ولم تبق الاّ ذكرى الابطال — أبطال المفكرين تفكيراً حرًّا

فان نحن اجتزنا العقبة وعبرنا السبيل كما عبرهُ اسلافنا المفكرون الاحرار غير مبالين بما تلاقيهِ من اضطهاد او عقاب فاننا نكون حقًّا قد وضعنا الاساس المتين ونكون قد مهّدنا الى نهضة اجتماعية وسياسية تأتي بأسرع مما نظن فتتبوأ مكانها في مجتمع الحضارة الصحيح

فالحرية أساس كل بناء في حضارة جديرة بأن تعيش . فاذا قام شعب بنهضة سياسية لا تكون الحرية اساساً فيها فلن تكون تلك النهضة الاّ قلقاً غايتهُ التخلص من نير الى نير ونقلاً للحكم من يد الى يد اخرى — وهذا ما نعوذ بالله منهُ

حرية الآداب

لعباس محمود العقاد

ما هي النهضة ؟ هي الخروج من حالة الجمود إلى حالة الحركة ، او هي الانتقال من المحاكاة والتقيد إلى عهد الاستقلال والحرية . فاذا أردنا أن نقوّم نهضة بقيمتها الصحيحة فنبحث عن دلائل الحرية فيها ثمّ النهضة وثمّ يكون أظهر مظاهرها

بيد أني أقسم الحرية إلى نوعين : نوع أسميه الحرية المادية وأعني به الحرية الاضطرارية أي الحرية التي لا تكون أحراراً في طلبها بل نعمد اليها بكرهين مدفوعين بحكم الأحوال القاهرة وبواعث المعيشة، وتلك حرية ناقصة مبتورة لانها حرية من لا حرية لهُ في الاختيار فاذا تبدلت أحوال المعيشة فضاقت بنا عاداتنا وعقائدنا في أحوالنا الجديدة فبرمنا بها ونفضناها عنا فتلك حركة مباركة وحرية طيبة ولكنها على هذا حرية تملوها حريات ومنزلة لا تغبط الامم على الوقوف لديها وليس يصعب عليك أن ترى مثيلاً لها في الحيوان يضيق به الحبس فيتطلق منهُ أو يثقل عليه القيد فيعالج كسره أو في الجماد يتقدم لانه لا يستطيع أن يقف مكانهُ أو يتحرك لانه محمول على الحركة

ونوع آخر هو الحرية الروحية او هو الحرية التي لا تدفعك اليها الضرورات المألوفة والمطالب السوقية وانما يدفعك اليها اتساع أفق النفس وسمو معاني الحياة والطموح الى غايات من الرفعة والجمال يشتاقها الانسان الكامل وهو موفور الجد سكين المؤونة . فهذه الحرية هي الحرية النفيسة الغالية وهي مقياس النهضات الشريفة وفضيلة الانسان على سائر المخلوقات ، وهي الحرية التي تترجم عنها الآداب والفنون والفلسفة الروحية وما اليها من التعبيرات «الجميلة» عن اشواق الحياة

ولقد سألتموني : «ما هي أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة وأبقى آثارها ؟» فرأيي اذن أن اظهر مظاهر نهضتنا وابقى آثارها هو «حرية الآداب» او هو حركة التجديد في الشعر والكتابة والفن لانها الحركة التي لا تتقيد بمحاكاة قديم ولا بمحاكاة حديث، ولانها ترجمان تلك الحرية التي نحن احرار في طلبها بقدر ما يكون الانسان حرًّا في هذا الوجود ، وليست بترجمان حرية نحن مدفوعون اليها بدوافع الاضطرار والكثيف والمطالب التي يشبهنا فيها الحيوان وقد يوجدها مثيل في الجماد

على أن هذه الظاهرة — بعد — ضعيفة الاثر قليلة الحصول ، فاذا هي بلغت أشدها وأوفت على تمامها فهنالك تبحث في الشرق عن جميع ظواهر النهضات التي عرفتها الامم فلا يعوزك منها دليل، بل هنالك لا يعوزك حتى الدلائل على النهضة «العيشية» التي تعوزنا الآن لانا تمشي مع البواعث الوقتية مسخرين خطوة بعد خطوة ولا ننبعث الى الحرية بشوق في النفس وحب للجمال . فالحقيقة انا اليوم لا نضارع غيرنا في الاختراع والابتكار ومجاراة حاجات المعيشة لاسباب خلاصتها انهم يفهمون الجمال ونحن لا نفهم الجمال ، لا انهم خلقوا بمعدات وأعضاء ونحن خلقنا بغير معدات وأعضاء

انهيار التقاليد القديمة

للدكتور بايرد ضدج
رئيس جامعة بيروت الاميركية

منذ بضع سنوات نقيت علماً عربيًّا من علماء الهيئة ، اقتبس معارفهُ من كتّاب القرون الوسطى وبنى على كتاباتهم آراءه في حلقات زحل وأقمار المشتري وعدد النجوم الثوابت والقوهات البركانية التي تبدو على وجه القمر ، وكانت هذه الآراء مبنية على مقام الكتّاب الذين قالوها ومقام تلاميذهم الذين تناقلوها على مرّ العصور ، ولم يكن للمرقب والبحث العلمي نصيب ما في تكوينها

وفي أحد الايام زارنا في جامعة بيروت الاميركية فذهبت معهُ في المساء إلى مرصد الجامعة وفيه مرقب قطر بلورته ١٢ بوصة، نشاهد بأم عينه بواسطة هذا المرقب ، أقمار المشتري وجاميع النجوم التي كشفت حديثاً وأثبتت وجود عوالم في الفضاء اللانهائي لم تكن معروفة قبلاً وشاهد أيضاً القوهات البركانية التي على وجه القمر وغير ذلك من غرائب الافلاك

فأنشأ يخبرني حينئذٍ كيف انقضت عليه سنون والفلسفة رائده في درس هذه الظاهرات الطبيعية ووصف مقدار سروره لانهُ أتيحت لهُ فرصة ليرى حقيقتها بعينه . ففي لحظة واحدة انتقل مركز السلطة الفكرية لديه من كتّاب القرون الوسطى إلى ما كشفتهُ آلة علمية حديثة

وعرفت رجلاً آخر من لبنان تلقى العلوم اللاهوتية في حداثته وجعل ما جاء في الكتب الدينية أساساً لمعتقده وإيمانه . وكان راسخ الاعتقاد بيوم الدينونة، وبوجود «سماء» و«جهنم» وكان لشدة إيمانه يتدفق حين الوعظ بآيات الكتاب حتى أصبح في بلدته علَماً يدعو الناس إلى الهداية والخلاص . ولكنهُ اختلط بكثيرين من رجال العصر وشبانه فأخذت تتطرق اليه شكوك وريب تعذب نفسهُ المطمئنة . أخذ يرتاب في محتويات الكتب الدينية كلما ازداد تعمقاً في درسها ، وأخذ يبحث عن الحقيقة في مكان آخر . ولما فقد ثقتهُ في صحة الوحي تزعزع إيمانهُ وبردت همتهُ وضعفت قوتهُ عن دعوة الناس وردهم إلى التوبة والخلاص وحاول أن يجد أساساً جديداً لايمانه فلم يفلح ولبث يتخبط في الظلام

***

فعندي أن أظهر مظهر في النهضة الشرقية الحديثة هو أن الناس أخذوا يفقدون ما لهم من

الثقة في تقاليد آبائهم كقاعدة لمعتقداتهم الدينية والادبية ودليل لسلوكهم وانهم اخذوا يبحثون عن اساس غير هذه المعتقدات

لما اندلعت ألسنة اللهيب في أزمير قبيل استيلاء الاتراك عليها سنة ١٩٢٢ هرب كثير من سكانها إلى الميناء. وقفوا هناك على الحد بين البر والبحر يشاهدون بيوتهم وكل ما فيها من عزيز لديهم تتالهُ يد الفناء، ورأوا النيران تلتهم كل شيء حتى لقد كانوا في خطر منها على الثياب التي يرتدونها فدفعهم اليأس إلى الماء يسبحون الى المراكب التي في المرفأ او خارجهُ لعلهم يصلون الى مركب يقيهم. ولكن المراكب والسفن كانت مزدحمة باللاجئين اليها، فغالبوا الامواج حيناً حتى وهنت قواهم وابتلعتهم اللجج

هكذا يرى كثيرون من الناس أن التقاليد والمعتقدات القديمة التي قدَّسها آباؤهم وجروا عليها تنهار إلى الحضيض انهياراً سريعاً يهددهم بهدم معتقدهم الشخصي. فيندفعون مدبرين عنها يبحثون عن أساس جديد لمعتقد جديد فيطمس كثيرون منهم في الظلام ثم يهبطون الى هوَّة الشك أو يغرقون في لجة « المادية »

***

وهذا المظهر من مظاهر النهضة في الشرق لا يقتصر على مذهب دون مذهب أو على جنس دون آخر، فإن الثوار في روسيا نقضوا الكنيسة والعائلة وغيرهما من أركان الحياة الدينية والاجتماعية. واليونيين في الصين أخذوا معابدهم من التماثيل لكي ينشئوا فيها مدارس علمية حديثة. ومنذ بضعة أسابيع كنت في تركيا فشاهدت فيها بعيني، القيود القديمة التي كانت تقيد بها المرأة، والاحترام لرؤساء الدين، والايمان بالوحي الالهي — شاهدت كل ذلك ينهار أمام المذاهب العلمية الجديدة وحرية الحياة الاوربية

وفي البلدان الشرقية نعرف كثيرين من الرجال والنساء الذين لا يهتمون باحترام التقاليد والعادات والاعياد التي أحبها آباؤهم وجروا عليها. كذلك نجد جهلاً معيباً بأقوال الكتب الدينية واعراضاً عن الصلوات العامة وفي الوقت نفسه نرى ازدياداً في تعاطي المسكرات وانتشار الآفات الاجتماعية. وميلاً الى احلال المسرات والملاهي محل التقاليد القديمة المحترمة. وزاد في اثر ذلك وقوع الحرب وتجييش الجيوش وانتشارها في مختلف البلدان

ففي الحين الذي نرى فيه افراد الجيل الجديد يديرون عن معتقدات آبائهم القديمة نراهم ايضاً يقبلون على الفلسفة القديمة القائلة « لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت »

مضى على مصر والعراق وفلسطين وتركيا نحو خمسين سنة، أي منذ ما الشيء المقتطف وهي

تقطع شوطاً من أشواط الانسان يقع بين عهدي المدنية (الاقطاع) والديمقراطية . اي انقلاب تمَّ في هذه السنين ! ها سكك الحديد والسيارات والطائرات والتلغراف والتلفون، تطوي الابعاد الشاسعة حتى كادت تمحوها . وها مذهب النشوء الجديد أخذ العلم يقيمهُ مقام القول القديم بالخلق المستقلّ . لقد أثبت باستور أن الامراض تنشأ عن أحياء صغيرة هي الميكروبات . وأصبح الزمن يقاس بسني النور ، والتاريخ بالصور الجيولوجية المتطاولة . وصُدِم الاعتقاد بامكان حدوث العجائب صدمة عنيفة ، وصار الكون آلة تتألف من جواهر وأيونات ، تربطها معاً نواميس طبيعية كشفها البحث والامتحان . في كل هذا يبحث الشبان والشابات عن معبود آبائهم وفي الغالب لا يجدونهُ . يقولون اذا كانت الارض كرة فأين جهنم ، واذا كان الفضاء غير محدود فأين السماء

وقد فازت النساء في كثير من البلدان المجاورة للبلدان الشرقية بحق الانتخاب ، وعليه ترى اخواتهنّ في الشرق يطلبنَ التحرر من القيود التي قيدنَ بها ، القيود المبنية على تمييز بين الرجال والنساء . اضف الى ذلك ان الامم التي تجري على العادات الاوربية في معيشتها اخذت تنتشر في الارض ولها من جيوشها وسائل منظمة لنيل المطامع البشرية

***

ما أعظم التجارب التي يتعرض لها الشبان والشابات في الشرق . انهم معرضون لفقد ما لهم من الثقة في عادات آبائهم وتقاليد اجدادهم والتجري على العادات الغربية غير عارفين هل هذه العادات نتائج الارتقاء الحقيقي او هي سراب يلمع ويخفي وراءه المعايب

ما من جيل في التاريخ واجه طائفة من المشكلات كالمشكلات التي يواجهها ابناء الجيل الحاضر ، وما من جماعة من الفتيان والفتيات وجدت امامها ما يثنيها عن الايمان الصحيح كفتيان الشرق وفتياتهُ في هذا العصر . وسواء تمكن المتقدمون في السن من قبول الآراء الجديدة والتجري عليها او لم يتمكنوا ، فانهم لا شك يستطيعون ان يعطفوا على الشبان الذين تمزقهم هذه الشكوك المؤلمة . وسواء اردنا او لم نرد ، لا نقدر ان نقف سدّاً في سبيل تيار ما يسمى مدنية وما يحمله معهُ من آراء جديدة في العلم والاجتماع

وعليه ارى ان اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة هو هذا الميل الى هدم التقاليد القديمة كأساس للمعتقد والسلوك . وعملنا هو ان نساعد النشء الجديد ليجد اساساً لمعتقدات تعصمهم من احتقار الدين وتقودهم الى الاحتفاظ بأعلى مستوى ادبي حتى يعيشوا لتحقيق الغايات الروحية الرفيعة

في قلوب النرابغ

لامين الريحاني

ان أظهر هذه المظاهر ما يراهُ كل الناس ، كالملابس الافرنجية ، والاسواق المرصفة والارتال الكهربائية ، والسيارات ، والابنية التي لا شرقية تُعرف ولا غربية — انها كلها من مظاهر التطور ، وقد تقدمنا مظاهر النهضة . ومما لا مرية فيه أننا غيرنا عاداتنا في الملابس والاسفار ، وصرنا نفضل الجادة المرصفة على الرمل والغبار ، والكهربائية على الحمار . ولا فرق مختارين كنا في ذلك او مرغمين

هو التيار الاوربي والناس امامهُ كالرمان في طريق اصيل . قلنا وان لذت لنا قراءة الاخبار واستماعها عن اجدادنا منذ خمسين سنة فلا بلد لنا ، ولا نستطيع الاَّ بوثبة نصفها عقل ونصفها جنون ، ان نعود الى ما كانوا يلبسون ويتطون ، ويبنون ويفرشون . على اني اذا تصورت الشيخ ناصيف اليازجي مثلاً والدكتور يعقوب صرُّوف — الشيخ ناصيف في عمامته وابازمه ، جالساً على «طراحته» يدخن غليونهُ الطويل وهو يكتب ، والدكتور يعقوب في بزته الافرنجية ، مكشوف الرأس ولا غليون حتى ولا سيجة يدمن — تستوقفني الصورة الاولى وان كان قلبي وعقلي يتجهان حبًّا واحتراماً الى الثانية . نعم ان المسألة ذوقية لا اجتماعية

ولكني اسأل القارىء ان يتصوَّر مؤسس مصر الحديثة ، محمد علي الكبير ، بعمامته البيضاء الوافرة ، او في طربوشه المغربي ، وهو متربع في ديوانه ، او ممتطٍ صهوة حصانه ، ثم يتصور احد حكام هذا الشرق الادنى اليوم الذين يُقيدون انفسهم بأربع اذرع من الجوخ الانكليزي او الافرنسي ، ويجلسون في السيارة وهم يدخنون السيكارة — يتصور الصورتين ويسأل نفسهُ أيتهما ادعى الى الوقار والاعجاب . أية الصورتين أفخم وأجل وأجل ؟ هذا في الظاهر ، في القيافة . ولا أثير في قلب القارىء الاشجان فأسألهُ ان يقابل بين مؤسس اكبر النهضات الشرقية العربية الحديثة ، صاحب الطربوش والسروال وبين حكام هذا الزمان الدستوريين

ليست أظهر المظاهر اذن من اركان النهضة الشرقية ، ولا هي برهان على النهضة الثابتة التي فيها رقي حقيقي ومعنوي

وما هي يا ترى هذه النهضة ؟ النهضة في القاموس الطاقة والقوة ، او هي الطاقة على النهوض

مما نحن فيه الى شيء أرفع منهُ . ولكن روح الزمن اكسب اللفظة معنىً آخر او ظلاً من المعنى جديداً . اني افهم بالنهضة الثورة على القديم الذي امسى عقيماً ، والقديم الذي صار بالياً ، والقديم الذي كان منذ البدء فاسداً ، ان كان في الاحكام ، او في العقائد ، أو في الآداب ، او في العلوم ولهذه الثورة مظاهر يراها كل الناس فهي اذن اظهرها ، ولكنها ليست بأهمها . ولها مظاهر لا يراها الا فريق من الناس ، وقد لا يراها غير الخاصة من ذوي الالباب ، وهي في نظري اهمها

اما تلك التي يراها كل انسان ويشارك اليوم فيها ، فيخسر او يكسب في سبيلها ، انما هي هذه الاحكام الدستورية التي حلت محل الحكم التركي القديم . ولكنها في مظاهرها مدعاة لغير الاحترام فلو عاد الوالي الذي كان يحكم بغداد منذ خمسين سنة ، ورأى الملك فيصلاً يلعب « التنس » واصدقاءهُ الانكليز ، لهزَّ رأسهُ مبتسماً وهو يقول ، كي لا يخجل صاحب الجلالة ، بين النخيل

ولو عاد الخديوي اسماعيل ورأى هذا البرلمان المصري الباهر وهؤلاء الافاضل المكلين بالثوب الافرنجي الرسمي — اسود على ابيض — وبينهم نطح من العمائم لرفض ان يجلس على العرش المعد لهُ قائلاً — ايها السادة السوَّدون اني افضل ان اكون واحداً منكم على ان اقيد بارادتكم كلها

ولو تجسد ثانية احد ولاة الشام وشاهد ماحلَّ بدمشق في السنة الاخيرة لرفع يديهِ الى السماء شاكراً شاكياً معاً . وما هي مظالمنا يا ربي اذا قيست بأعمال المتمدنين ؟

ولو أُتيح للامير بشير الكبير ان يزور اليوم سراي بيت الدين فيرى من على هذه الجمهورية اللبنانية لضرب الارض بفليونهِ ، وعاد دامع العين الى قبرهِ

حكومات جمهورية ديمقراطية ! واحكام برلمانية ! تدابير ! هي اظهر مظاهر النهضة الشرقية العربية اليوم ، واقلها اهمية ، اذ لا ارى فيها سياسيًّا او اخلاقيًّا ، ولا قوة حقيقية او معنوية . فهل تظنها في هذا الشكل الصناعي — وقل المدرسي التمريني — تدوم طويلاً . لا ورب القوة ! انما ان يقوم عليها حاكم من اهل البلاد — حاكم بأمرهِ وسيفهِ — مثل مصطفى كمال او ابن سعود ، واما ان ينهض الشعب بأسرهِ على اولئك الذين يرومون استعمار الشرق الادنى بواسطتها فيصبون على دورها البنزين ويوكلون بها النار

وأية مهزلة ، بل أية مأساة اشد من هذه التي يشترك فيها الوطني المزيَّف ، والاجنبي المضيَّف ؟ هل تريدون حكومة دستورية ، وملكاً مقيداً ، وبرلماناً ؟ هاكم ما تريدون . وكلهم

مقيدون ، الملك والبرلمان والدستور . كلهم مقيدون من أجلكم ايها الشرقيون

هي ذي هبة السياسة الاوربية الحرة للشرق الطالب الحرية والاستقلال . هي ذي التحفة التي يطلون بها اليوم هذا الشرق القديم الجديد

ان هناك مظهراً آخر يستحق فضل التفضيل وهو المدارس . نعم ان تعدُّد المدارس في مصر وسورية ، وفي العراق ايضاً ، من أظهر مظاهر النهضة الشرقية التي تبدو للعيان فيراها كل انسان وليست هي بأهم من الدستور والبرلمان . ليست هي عنواناً — عنواناً في الاقل — للتهذيب الاخلاقي القومي ، والتهذيب العلمي العالي

والسبب في ذلك هو ان اكثر هذه المدارس لا تزال مقيدة اما ببرنامج ديني واما ببرنامج اجنبي . او ان اكثرها لا يزال بيد رجال الدين الوطنيين منهم والاجانب . وهناك عدد ليس بقليل من المدارس الاجنبية التي لا يرى مديروها في تاريخ العالم كله ما هو اهم واعظم وامجد من تاريخ بلادهم . — شرلمان وركاردوس قلب الاسد ، وبطرس الاكبر هم هم ابطال التاريخ . بل ابطال العالم : — قل لي يا ولدي كم كان عدد ابناء شرلمان ؟ وأيهم كان يفضل شرب الجعة على شرب النبيذ ؟ — وقل لي ما اسم البطل القومي الذي كسر الاناء الروماني ؟ فرتاجيودسك . — حار . اسمهُ فرسنجاتوريكس . انهُ والله لعلم جبل . ولا اظن احداً من طلبة هذه المدارس يعرف اسم طارق بن زياد !

ليست الاحكام البرلمانية اذن ، ولا تعدد المدارس بأهم مظاهر النهضة الشرقية ، وان كانت من اظهرها . ولعمري ان مدرسة مثل مدرسة المعلم بطرس في زمانه لاصلح وانفع من هذه التي يتخرج الشبان فيها متفرنجين ، لا يعرفون لغتهم ، ولا تاريخ بلادهم ، وقلما يحترمون غير الاجنبي

ان مظاهر النهضة الشرقية التي لا تستحق افضل التفضيل بالمعنى الذي افصحت عنهُ ، ولكنها من الاهمية في اعلى مكان ، انما هي المظاهر العلمية ، والادبية ، والاصلاحية التي تشتمل مصابيحها على الدوام في قلوب افراد من الناس ، في قلوب نوابغ الامة . هي المصابيح ، مصابيح العلم والادب والشعر والفنون ، ترسل اشعتها الفضية والذهبية الى قلب المجتمع الانساني ، الى مصدر الحياة فيه فتنير تدريجاً اظلم طبقاته ، واقصى زواياه الدامسة

أجل ان كتاباً واحداً او مقالاً واحداً او فكراً واحداً فيه حقيقة جديدة مفيدة للناس ، ترسلهُ

حرًّا في الناس لأشد فعلاً وأثبت قعاً وأعم خيراً من كل ما تجيء به الحكومات والمدارس المقيدة

عفواً ايها القارىء . قد تسرعت ، فاستثنيت ، فقلت « المقيدة » ! وما الحكومات على انواعها غير قيود للناس ، وآلات لجمع الضرائب ، واقامة الحروب . أجل . وما فضل الحكومات ، مقيدة كانت ام مطلقة ، في تاريخ الامم ، او بالحري في تاريخ الرقي والعمران ؟ هل سمعت في زمانك او قرأت ان حكومة من حكومات العالم اكتشفت اكتشافاً ، او اخترعت اختراعاً ، او اقدمت على اصلاح اجتماعي او سياسي من تلقاء نفسها ؟ أخشى ان تخرجني الحكومات عن الموضوع اذا سألت سؤالاً آخر

أعود اذن الى النهضة الشرقية العربية فأقول ان الفضل الاكبر فيها هو للعالم الذي يخدم العلم من أجل الحقيقة اولاً وآخراً ، وللاديب الذي يرفع ادبهُ على ثلاثة اركان هي الذوق السليم ، والقصد القويم ، والخلق الكريم ، وللمصلح الذي يفادي بكل ما هو عزيز لديه ، حتى بحياته ، في سبيل عقيدة يتيقن ان فيها الخير كل الخير للناس . وان اجل ما في هذه النهضة ، وأثبت ما فيها ، هو النفر من العلماء والادباء ، والمصلحين الذين لا يتقيدون بغير الحقيقة ، والفن ، والضمير . ولاشك ان عددهم آخذ في الازدياد . ولاشك ان من يقرأونهم ، ويقبلون عليهم ، ويتناقلون اقوالهم وافكارهم ، يُعَدون بالالوف اليوم وقد كانوا منذ خمسين سنة يعدون بالمئات

ومن نتائج هذا الازدياد في عدد الذين يقبلون على الادب الجديد ، ويطالعون الكتب العلمية والاصلاحية ، هو اننا اصبحنا اكثر طمعاً واكثر احتراماً للعلم من اجدادنا ، واكثر حرية كتابةً وقولاً ، واكثر تساهلاً في المعتقدات ، وأشد ميلاً الى التآلف والتضامن في سبيل الوطن

اقول اكثر تساهلاً على الرغم من ضجة في مصر أحدثها كتاب في النقد الادبي لاديب من المجددين وكتاب في الاصلاح الديني لعالم من العلماء المصلحين . فلو ظهر هذان الكتابان منذ اربعين سنة لكان السجن او الاغتيال جزاء الشيخ عبد الرازق والاستاذ طه حسين

الى الامام ؟

اما لي تقدم . وان الفضل الاكبر في ذلك عائد الى مجلتي المقتطف والهلال ، والى اولئك الادباء المجددين والمصلحين الصادقين الذين ينبذون القديم — القديم العقيم ، والقديم البالي ، والقديم الذي كان منذ البدء فاسداً — ينبذونهُ ويقولون ، بلغة المعري أبي العلاء ، عليه رحمة المتباهلين